بعض مخاوف الشعوب

تسود الشعوب مخاوف تنتقل من جيل إلى جيل وتصبح على مر الزمان من جملة التقاليد. وإذا تتبعنا كثيرا من المخاوف الشعبية الحاضرة، رأينا أنها ميراث الإنسان البدائي، وفي ذلك يقول نيتشه : " إننا نعيش على آثار العواطف الأولى التي انفعل بها أجدادنا في العصور البدائية ".

ولم يكن يعرف الإنسان البدائي إلا الظاهر المحسوس، حتى أن مشاعره الباطنة، والرؤى التي يراها في أحلامه، لا تفترق عما يشاهده في الظاهر. فالكون بأسره، سواء أكان ذلك الشمس التي تجري من الشرق إلى الغرب، أم السحاب الذي تسوقه الرياح، أم المطر الذي ينزل من السحاب، أم الشجر الذي ينمو شيئا فشيئا مع الأيام، أم الحيوان الذي يدب على ظهر الأرض، جميع هذه المظاهر تحركها قوى مادية خفية أشبه بذلك القرين الذي اكتشفه في نفسه حين رأى خياله في ماء النهر أو البحيرة فعرف نفسه، وعرف أنه مصدر ما الفعل. ووجد ظله يلازمه ولا يفترق عنه، فهو قرينا يبدو له كالشبح، ولا يستطيع أن يلمسه كما يلمس الأشياء الخارجية. ثم ذهب إلى القول بوجود روح خفية هي التي تحركه، وتدفعه إلى العمل. واعتقد أن كل شئ في هذا الوجود تدفعه إلى الحركة قوة خفية كهذه الروح التي اكتشفها في نفسه. ثم جسَم هذه القوى الخفية حتى جعلها فائقة على الطبيعة المألوفة. ثم توجه إلى هذه القوى التي رهبها وخشي منها بالرجاء، والتمس منها العون بالدعاء، ودفع شرها عنه

بالقربان والابتهال والاحتفال.

الخوف من السحر :

ونشأ السحر عن الاعتقاد في وجود هذه القوى القادرة على الخير والشر. ورتب البدائيون حياتهم وأعمالهم مخضعين إياها لهذه القوى، وأوجبوا على أنفسهم دفع شرها بأعمال سحرية تضادها، وتبطل أثرها السيئ.

ويحكي علماء الاجتماع كثيرا من المشاهدات التي تؤيد ذلك. عندما يطارد رجل من شعب " الجلياك " صيدا في الغابة، يمتنع أهله وأولاده وهم في داخل الدار من الرسم على الخشب أو الرمل، ذلك لأنهم يخشون أن تضطرب الطرق في الغابة، وتختلط المسالك تبعا لاختلاط الخطوط في الرسوم، حتى ليفقد الصائد طريقه ويضل، ويعجز عن العودة إلى أهله.

ومما يروى عن نساء " الدياك " امتناعهن عن المساس بأي مادة شحمية لزجة، إذا كان أزواجهن في الصيد، حتى لا تنزلق الفريسة من بين أصابع أزواجهن.

ويخشى نساء " الهوتنتوت " على أزواجهن إذا كانوا في رحلة الصيد أن يمسهم الضر، فيشعلن نارا تظل موقدة لا تخبو، أو يذهبن إلى شاطئ النهر يعبثن بالماء دون توقف، فإذا توقفن عن إشعال النار أو العبث بالماء، وقع الأزواج في أعظم الخطر.

ويعتقد البدائيون أن هذه الأعمال تدفع عنهم الأذى وتبعد الشر. ثم استغل بعض المهرة منهم هذا الاعتقاد في أعمال السحر التي تعرف باسم

" السحر الأسود ". فكان أعظم ما يخشاه البدائيون ويرهبون جانبه هو الساحر الذي يستطيع بقوته السحرية أن يصنع من الطين على هيئة العدو، ثم يطعنه في موضع القلب، فإذا بغريمه يقع صريعا، على بعد المسافة واختلاف المكان. ويروي مالينوفسكي العالم الاجتماعي أنه شاهد أحد هؤلاء السحرة يضرب بسيفه في الهواء، كأنه يثير خصمه، ويبعث في نفسه الرعب، وليس الذي أمامه إلا تمثالا.

ولا يقف الخصم إذا عرف بهذه الأعمال السحرية مكتوف الأيدي، إذ يلجأ إلى ساحر آخر يعمل على إبطال ذلك السحر، فإذا لم يجد استسلم للقضاء والقدر، وامتنع عن تناول الطعام حتى يموت.

ولا تزال هذه الأعمال السحرية شائعة في مصر بين العامة من الناس، وفي الريف بوجه خاص، ويربح السحرة من هذه المهنة الكثير من المال يبتزونه من السذج وأصحاب العقليات البدائية.

ومما يتصل بهذا الباب أن كثيرا من الناس يخشون أن يتركوا شيئا من خاصة أبدانهم كالشعر أو الأظافر، لأنها إذا وقعت في يد عدو لهم، قرأ عليها العزائم السحرية فأضرت بهم. وهذا أثر من عقائد البدائيين لا يزال يسري في العامة حتى اليوم. وفي اصطلاح القوم أن كل ما يتعلق بالإنسان سواء أكان ذلك خصلة من شعره، أو قلامة من ظفره، أو رقعة من ثيابه، أو شيئا من هذه الأشياء التي يستعملها، فهو " الأثر "، وينطقه العامة محرفا فيقولون : " الأطر ". وإذا ذهبت اليوم إلى شخص ممن يزعم الاطلاع على الغيب أو عمل السحر طلب " منديل " الشخص الذي

تريد أن تسحر له

الخوف من الجن :

وكلما انتشر العلم والتعليم تبددت هذه المخاوف التي تشيع مع انتشار الجهل. وقد كانت أكثر انتشارا في القرن الماضي منها اليوم. وروى إدوارد لين في كتابه عن مصر في القرن التاسع عشر عدة فصول عن الخرافات والسحر، وذكر حكايات كثيرة شاهدها بنفسه، أو سمعها عن أصدقائه. حكى له الشيخ خليل المدابغي وهو من أشهر علماء مصر في ذلك الحين الحكاية الآتية : "كان له قط أسود عزيز ينام عند سريره. وسمع في منتصف إحدى الليالي طرقا على باب داره فقام القط، وفتح مصراع الشباك، وهتف : من ؟ فأجابه صوت : أنا فلان الجني، افتح الباب. فقال القط : إن المزلاج قد قرئ عليه اسم الله. فقال الجني : اعطني رغيفين من الخبز. فأجاب القط، إن سلة الخبز سمى عليها. ثم أشار عليه القط أن يذهب إلى البيت المجاور... ".

ومغزى هذه الحكاية الاعتقاد في تشكل الجن بأشكال الحيوانات وبخاصة القطط والكلاب.

ويذهب الجاحظ في كتاب الحيوان مذهبا معقولا في تعليل الاعتقاد بالجن والغول والعفاريت. فهو يرجع ذلك إلى الوحشة من الانفراد والعزلة، وإلى ميل بعض الناس إلى الكذب والتهويل. قال : إن أصل الأمر في تغول الغيلان أن القوم لما نزلوا بلاد الوحش عملت فيهم الوحشة. ومن انفرد وطال مقامه في البلاد والخلاء والبعد من الإنس استوحش.

وإذا استوحش الإنسان تمثل له الشئ الصغير في صورة الكبير، وارتاب، وتفرق ذهنه، فرأى ما لا يرى، وسمع ما لا يسمع، وتوهم على الشئ اليسير الحقير أنه عظيم جليل.

ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعرا تناشدوه، وأحاديث توارثوها، فازدادوا بذلك إيمانا، ونشأ عليه الناشئ، وربى به الطفل، فصار أحدهم حين يتوسط الفيافي، وتشتمل عليه الغيطان في الليالي الحنادس، فعند أول وحشة وفزعة، وعند صياح يوم ومجاوبة صدى، وقد رأى كل باطل، وتوهم كل زور، وربما كان في أصل الخلق والطبيعة كذابا نفاجا، وصاحب تشنيع وتهويل، فيقول في ذلك من الشعر على هذه الصفة، فعند ذلك يقول : رأيت الغيلان، وكلمت السعلاة. ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول قتلتها ! ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول رافقتها ! ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول : تزوجتها. قال عبيد بن أيوب :

فللـــه در الغـــول أي رفيقـــه لصـــاحب قفـــر خـــائف متقـــتر

ومما زادهم في هذا الباب، وأغراهم به، ومد لهم فيه، أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار، وبهذه الأخبار، إلا أعرابيا مثلهم، وإلا عاميا، لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق، أو الشك، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت في هذه الأجناس قط.

فانظر كيف نسب الجاحظ الاعتقاد في الجن إلى الخوف. ثم إلى الكذب والتهويل، ثم إلى الجهل. والجهل كما ذكرنا أول مصادر الخوف.

وقد أدى انتشار الجهل في عصور التأخر والانحطاط إلى تصور أن

الجن كائنات متوسطة بين الملائكة والإنس. وأنها تتشكل على هيئة الطير والبهائم والوحش والناس، وتستطيع أن تختفي حين تريد. وزعموا أنها تسكن جبال قاف، ثم قالوا : ومنهم الكفرة ومنهم المؤمنون، أما الكفار فهم الشياطين والأبالسة.

ومن سوء تربية الآباء لأبنائهم أن يعملوا على تخويفهم بالعفاريت فينشأ الأطفال على الفزع والجبن. وكنت أسمع وأنا صبي صغير أقاصيص الجن والعفاريت من الخدم، ومن امرأة عجوز كانت تزورنا، وتبيت عندنا الليلة أو الليلتين، تقضيهما في السمر إذا جاء المساء. فإذا دب أحد الأطفال على أرض الغرفة قالت له رفقا بسكان المكان. وكانت لهذه الأقاصيص فتنة في عقولنا الصغيرة، فهي تبعث على الخوف، وتدفع مع الخوف إلى التهويل، وتؤدي مع التهويل إلى فسحة من الخيال الخصب الذي يزخر بالرؤى في اليقظة، والأحلام في المنام.

ولا تحسبن أن هذه الخرافات العجيبة وقف على العرب والمسلمين، فهي شائعة في الجنس البشري بأسره في عصوره البدائية. ويمتلئ الأدب اليوناني القديم بأساطير الجن والشياطين. وزعم الجرمان أن الغابات في ابتداء أمرها كانت عامرة بالشياطين والمردة والجن والعرائس، حتى لقد انبثت هذه الجن والشياطين في موسيقى المحدثين من الجرمان مثل فاجنر وموزارت. وهذا سر روعتها، لأنها تثير في النفس ما رسب فيها من مخاوف ومشاعر استقرت منذ أجيال وأجيال.

ومن الغريب أن يعتقد جيته هذا الاعتقاد، مع أنه من جملة فلاسفة

القرن التاسع عشر الذين كانوا يؤمنون بالعلم وسطوته، والعقل وقوته. إلا أنه عجز عن تفسير العبقرية، وذهب في تعليلها مذهب العرب الذين كانوا يقولون بشيطان الشعراء.

كتب جيته في هذا المعنى يقول :

كثيرا ما تجد سيرة المرء تتحول في منتصف عمره. وبعد أن كان مؤيدا في شبابه فيقبل من نجاح إلى نجاح آخر، إذا به يتغير فجأة فتلاحقه البلايا، ويقبل من نحس إلى نحس آخر. وأزيدك بفكرتي فأقول : إن المرء لا يكاد يصل حتى يتحطم، ولكل عبقري رسالة خاصة لا تزال تلح عليه في إبلاغها، حتى إذا أتمها لم تعد به حاجة إلى أن يعيش في هذه الصورة التي يعيشها على ظهر الأرض. ولما كان كل شئ على ظهر الأرض خاضعا للقوى الطبيعية، فإن الجن لا تزال تعلو بالعبقري ثم تتركه فيهوى. كان ذلك هو الحال مع نابليون، ومع روفائيل، ومع موزارت في سن السادسة والثلاثين.

فإذا سلمنا بهذا المذهب رأينا أن الذي يتملكه الشيطان، إما أن يطمئن إليه، فيركب على أجنحته، ويحمله على الخلق والإبداع وإحداث المعجزات والخوارق، وإما أن يفزع منه ويرهبه، فيهوى، وتسوء حاله، وتضطرب حياته.

أقول : ليس الشيطان الذي اطمأن إليه جيته، وفزع منه، إلا الضمير أو الأنا العليا تارة، والأنا السفلى أو النفس الأمارة بالسوء تارة أخرى. هذا إذا أخذنا بمذهب أصحاب التحليل. أو قل إن الإنسان يخاف نفسه،

حين يعتقد أنه مركب من جسد وروح، كما ذهب البدائيون إلى أن سائر الكائنات تحركها أرواح كهذه الروح التي تحرك الإنسان.

وزعم حكماء الهند أن النوم ينشأ من انفصال النفس عن الجسد، وجاء في أحد كتبهم المقدسة : " لا يوقظن أحد نائما إيقاظا مفاجئا عنيفا، حتى لا تضل الروح، فلا تعرف طريقها إلى جسدها ".

الخوف من الحسد والعين :

وكان قدماء المصريين يعتقدون في وجود الأرواح الشريرة، وفي أنها مصدر الشر والضرر ينزل بالناس، فخشوا بأسها، ورهبوا جانبها، واستعانوا على طردها، وإبعاد شرها، بضروب من التعاويذ والرقي والتمائم. ذكر " بريستد " قصة أم والهة ترقى ولدها، وتريد أن تبعد عنه الشياطين، قالت ما ترجمته عن أوراق البردي :

اخرج يا من تأتي في الظلام وتدخل خلسة.

هل أتيت لتقبل هذا الطفل.

لن أسمح لك بتقبيله.

هل أتيت لتأخذه ؟

لن أسمح لك بأخذه مني

لقد حصنته منك بعشب إفيت الذي يؤلمك.

وبالبصل الذي يؤذيك.

وبالشهد الحلو في فم الأحياء المر في فم الأموات.

وقد انحدرت عادة الرقية عن قدماء المريين واحتفظ بها الشعب في جملة تقاليده حتى اليوم، وفي يوم عاشوراء المبارك يتجول بائع الرقية، وهي مكونه من ملح وكزبرة وحبة سوداء، مناديا : " يا بركة عاشوراء المبارك ". فإذا دعي للرقية أنزل صينية وباع منها مقدارا بحسب طلب الشاري، وهو ينشد العبارات المألوفة: " أرقبك من عين الولد أحمي من الزرد، ومن عين الراجل أحد من المناجل... ".

والمقصود بالعين في هذه الرقية عين الحسود، ولذلك قالت العامة : "عين الحسود فيها عود". والأصل في الحسد أن نظرة العين تصيب الإنسان أو الحيوان أو المتاع بالضرر، ولا يكاد بصر الحاسد يقع على الطفل حتى يموت، أو الدابة فإذا بها تنفق، أو التجارة فتكسد وتبور. ويحكي الفلاحون في الريف عن ناس اشتهروا بالحسد، واختصت عيونهم بهذا الضرب من القوة الشريرة الخفية، فلا تقع عين الواحد منهم على بقرة جاره الحلوب حتى يجف لبنها، أو تصاب بالمرض ثم تموت. فلا غرو أن يحشي العامة عين الحسود. وهذه هي العلة في تخفي الناس عن الأعين عند تناول الطعام، نعني خوف الحسد، ويقولون في ذلك إن الحاسد يتمنى أن ينزل الطعام في جوف آكله سما زعافا.

وقد يدفع بعض الناس شر الحسد بقراءة المعوذتين، التعوذ بالله رب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس. أو التعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن

شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد.

في حديث عن الإمام أحمد قال : " سحر النبي ﷺ رجل من اليهود، فاشتكى لذلك أياما، قال فجاءه جبريل فقال : إن رجلا من اليهود سحرك، وعقد لك عقدا في بئر كذا وكذا، فأرسل إليها من يجئ بها، فبعث رسول الله ﷺ فاستخرجها، فجاءه بها، فحللها. قال : فقام رسول الله ﷺ كأنه نشط من عقال ".

وأنكر الزمخشري في تفسيره تأثير السحر إلا إذا آمن به الجهلة، قال: "النفاثات النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقدا في خيوط، وينفثن عليها، ويرقين. والنفث النفخ مع ريق. ولا تأثير لذلك اللهم إلا إذا كان ثم إطعام شئ ضار، أو سقيه، أو إشمامه، أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه. ولكن الله عز وجل قد يفعل عند ذلك فعلا على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبت على الحق من الحشوية والجهلة من العوام، فينسبه الحشو والرعاع إليهن وإلى نفثهن. والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك، ولا يعبأون به "

وهذان مذهبان متناقضان في السحر والحسد، أحدهما يسلم بوجودهما وأثرهما، ويؤدي الاعتقاد في هذا التأثير إلى الرهبة من السحر، وإلى الخوف من الحسد، ويترتب على ذلك العمل على إبعاد أثرهما بأحد طريقين : التعوذ بالله، أو بضروب التعاويذ الشعبية التي تختلف باختلاف الشعوب. والطريق الثاني إخفاء ما تخشى عليه أعين الحساد. ولذلك تلجأ العامة إلى ألوان من السلوك ثبتت مع الزمن فأصبحت من جملة التقاليد

والعادات. فتجد المرأة إذا أنجبت طفلا حجبته عن الأنظار، ويتخفى الرجل إذا أكل عن العيون، وينكر التاجر ربحه، دفعا للعين وخوفا من الحسد. ولست تجد ذلك في الدول الراقية التي لا يعرف أهلها سرا، ولا يضعون أموالهم في الخزائن والقدور داخل الدور.

ويعلل فرويد الخوف من العين فيرجع ذلك إلى عهد الطفولة، حين كانت الأم تنهر ابنها، وتنظر إليه في غضب، وحين كان الأب يثور على طفله فيتطاير الشرر من عينيه. فالخوف من العين الشريرة ذكرى حياة الطفولة. وشيوع هذا الضرب من الخوف في الأمة دليل على طفولتها.

الخوف من الأرواح :

ولا يزال الخوف من الأرواح شائعا عند كثير من الناس، لأن الأرواح خفية مجهولة، وكل مجهول مخوف.

ولذلك عبد القدماء الأرواح، وألهوها، وألهوا كل ذي روح. وإنما عبدوا الأرواح لخوفهم منها، وخافوها لجهلهم بها.

وكانت حياة الإنسان البدائية محفوفة بالمخاطر التي ملأت قلبه رعبا، ثم أضاف إلى مخاوفه خوفا أعظم هو رهبة الموت. ولقد فزع من الموت عندما أدرك نفسه، وعرف امتيازها عن الجسد، وتحقق وجودها مستقلة عن الأجرام المادية، ورأى الأعزاء من أهله في أحلامه بعد موتهم وقد أصبحت أجسادهم عظاما، وتحدث إليهم وتحدثوا إليه في هذه الأحلام، ففزع من الرؤيا، وأخذ يتأمل ويفكر : إذا كان الأهل قد ماتوا حقا، فما بال هذه الصور تفد في الرؤى، وما شأنها، وما حقيقتها، أهي ضرب من الأوهام، أم

هي حقيقة من الحقائق الثابتة ؟ وانتهى إلى الاعتقاد في هذه الأوهام والأحلام، وآمن بها أشد من إيمانه بالمحسوسات التي يشهدها في يقظته، ونسبها إلى وجود الأرواح. وهي في الأغلب أرواح شريرة، لأنه دفن موتاه، ووراهم التراب، ليحول دون عودتهم. ثم دفن مع الموتى ألوان الطعام وسائر حاجاتهم، حتى إذا عادت الروح إلى جسدها، تمتعت بما كانت تتمتع به، فلا تصب لعنتها على الأحياء، أو تمسهم بشرها.

ولقد دفع الإنسان حبه لنفسه، ورغبته في الحياة، والاستمرار في التمتع بمباهجها، إلى أن يرهب الموت، ويطمع في الخلود. ولكن الموت حق، وكل نفس ذائقة الموت، وطبيعة الحياة تقتضي الوجود والعدم، غير أن البدائي لم يستطع مع جهله أن يعتقد في أن الموت ظاهرة طبيعية ترجع إلى الشيخوخة، ونسب ذلك إلى قوة خارقة للطبيعة فائقة عليها، وأرجعها إلى غضب الآلهة. فكان الخوف من الموت أحد أسباب التأليه.

الخوف والاعتقاد في اللّه :

ثم كان الخوف علة في تعدد الآلهة عند القدماء. فزع الإنسان من الرعد والبرق، ورهب الأحداث الطبيعية التي تؤذيه، وخاف بوجه خاص من الوحوش الكواسر، والزواحف السامة التي تقضي على حياته، بل تعجب كيف تتحرك الشمس ويجري القمر، وكيف يسير السحاب وينزل المطر، بل كيف يعبث النسيم بأوراق الشجر، فنسب ذلك كله إلى أرواح خفية تحركها، وشخَص الجوامد، وقدس سائر هذه المظاهر الطبيعية وعبدها. ويؤيد النظر في تاريخ الشعوب القديمة أنهم اتخذوا الشمس والقمر

والحيوانات آلهة عبدوها دون الواحد القهار. وإنما عبدوها رهبة منها، فكان الخوف أول مصادر التأليه. وقد ركب الله الخوف في نفوس العباد ليصلوا بذلك إلى معرفته. وإلى الإيمان به. وليس من الصواب أن نقول إن الإنسان اهتدى إلى الله عن قوة لا عن ضعف، لأن استقراء التاريخ قديما وحديثا، ينبئ عن الإيمان حين الضعف والخوف، ويدل على الكفر عند القوة والبطش.

ونذكر رأي الفيلسوف " توماس هوبس " الذي أوجزه في رسائله السبع، التي أهداها إلى الملك شارل، قال : " ليس الدين فلسفة بل تشريعا ". ذلك أن هوبس يعتقد أن الدين هو " الخوف من القوة الخفية ". وعنده أن فساد الدين يرجع إلى استغلال الحكام خوف الناس من القوة الإلهية، ثم جعل الحكام أنفسهم خلفاء الله في الأرض، فاحتفظوا بالقوة والسلطان، وأخضعوا الرعية باسم الدين، وساسوهم بالإيمان، وساقوهم بالرهبة. ولذلك كان الدين سبيلا إلى حفظ كيان الدولة. وليست الله إلا صفة واحدة هي القدرة والجبروت. ثم استمدت الكنيسة من قوة الله سلطانها. وتهدف عبادة الله إلى طلب الخير، أو دفع الشر والبلاء، أو الشكر على ما يناله الإنسان. وجوهر الدعاء في الصلاة، الاعتراف بالقدرة الإلهية.

ولم تعجب هذه المقالة رجال الكنيسة، لأنهم يقيمون معرفة الله، والاعتقاد في وجوده، والإيمان به، على جوهر آخر، هو " المحبة ". ثم حدث في لندن عام ١٦٦٥ – ١٦٦٦ وباء وحريق مشهور استمر خمسين يوما، أفزع الناس، ودفعهم إلى البحث في العلة التي جعلت الله

تعالى ينزل بهم هذه الكوارث، فقالوا : هذه لعنة من الله حلت بسكان لندن، نتيجة كفر هوبس وأتباعه، ممن اعتنقوا آراءه الفلسفية. وشكلت لجنة للنظر في كتبه، وقدم إلى البرلمان مشروع للنظر في أمر الزنادقة والحد من نشاطهم.

وخاف هوبس على حياته. وتحرك بعضهم بالفعل، وطلبوا " أن يحرق هذا الجنتلمان العجوز حيا لزندقته ". وأسرع هوبس يحرق بعض أوراقه التي دون فيها آراءه الدينية، قبل أن يقبض عليه ويحرق. ثم كتب رسالة يثبت فيها إيمانه، ويدافع فيها عن نفسه، ويحتج على عقوبة الحرق، ولكن الرسالة لم تطبع.

فانظر إلى الخوف كيف دفع هوبس إلى الهرب من الميدان.